

تمثلات الأنا والآخر في الأدب اللاجئ
روايتي: أم سعد وعائد إلى حيفا لغسان كنفاني – نموذجاً -

**Representations of the Self and the Other in Refugee Literature.
My Novel: Um Saad and Return to Haifa by Ghassan Kanafani –
Two Examples**

أ/ أمال زعيم

Amel ZAIM

د/ أحلام بوزيان¹

Ahlem BOUZIANE

جامعة الجزائر 2

مخبر جماليات التلقي في الخطاب السردي النسائي الجزائري

amel.zaim@univ-alger2.dz

abouziane@univ-boumerdes.dz

تاريخ القبول: 2025/10/09

تاريخ الإرسال: 2025/06/08

الملخص:

عبر الأدب اللاجئ عن العلاقات الإنسانية المتباينة بين الأنا والآخر واعتبر ترجمانا للمتلخيل السردي في مقابل الواقع، فأضحى بمثابة علامة معبرة عن تفاعل الإنسان مع الغير بواسطة صور تعبيرية رسمت حدودا متباينة بين الأنا والآخر، فكان الوعي الأدبي العربي متلازما مع نظيره الأجنبي خاصة ما تعلق بعلم الصورولوجيا وما تبعه من حرب أدبية هدفت للتحرر من هيمنة النسق الغربي بغية تصحيح الصور النمطية وكسر مسلمة المركزية الأوروبية.

فراح الأديب اللاجئ يمارس المقاومة الثقافية عن طريق فضح المستعمر أو المؤسسة المناهضة لحريته والقامعة لصوته باسم الدين أو الجنس أو العرق، كمحاولة لفهمه والتقرب منه ومد جسور التعارف، فهذا هو "غسان كنفاني" يغامر في لجج حرب الاحتلال الإسرائيلي في فلسطين والمؤتة بالتهجير والإبادة الجماعية، ململما بعضا من الصور المهربة من مخيلته المثقلة بالأحزان والنكبات في ثوب روايات أشبه ما تكون بسرد السير الذاتية. ما دفعنا للتساؤل عن تمثلات الآخر (الاحتلال الإسرائيلي) ناظرا ومنظورا إليه في هذا الخطاب الصوري المضمّر في روايتي: "أم سعد" و"عائد إلى حيفا".

الكلمات المفتاحية: الأنا والآخر؛ أدب اللاجئ؛ الاستغراب؛ الالتزام؛ غسان كنفاني.

Abstract:

Through literature, refugees expressed the contrasting human relationships between the self and the other and considered it a translation of the narrative imagination as opposed to reality. It became a sign expressing human interaction with others through expressive images that drew contrasting boundaries between the self and the other. Arab literary consciousness

¹- المرسل المؤلف.

was consistent with its foreign counterpart, especially with regard to iconology and the ensuing literary war that aimed to liberate itself from Western hegemony in order to correct stereotypes and break the assumption of European centrality.

The refugee writer practised cultural resistance by exposing the coloniser or the institution that opposed his freedom and suppressed his voice in the name of religion, gender or race, in an attempt to understand and get closer to him and build bridges of acquaintance. Here is Ghassan Kanafani, venturing into the depths of the Israel occupation in Palestine war, marked by displacement and genocide, gathering some of the images smuggled from his imagination, heavy with sorrow and calamity, in the guise of novels that resemble autobiographical narratives. This prompted us to question the representations of the other (the Israel occupation) as seen and perceived in this implicit visual discourse in his novels *Um Saad* and *Return to Haifa*.

Key words: The Self and the Other; Refugee Literature; Surprise; Commitment; Ghassan Kanafani.

1. مقدمة:

اكتسحت الرواية المجال السردي المعاصر وباتت الجنس الأكثر شيوعاً وانتشاراً بسبب قدرتها على ترجمة المتخيل الإنساني بشتى صورته، فهي محاكاة للهوية الثقافية وتمثل للأزمات القومية والإنسانية وترجمان للعلاقات الثنائية القائمة بين الذات والغير. فها هو اليهودي يتربع على قائمة التمثلات القبيحة المنوطة من الأعمال الأدبية العالمية شأنها شأن النصوص السردية العربية التي توارثت حقدتها من الحملات التاريخية الدموية التي أجبتها القضية الفلسطينية، خاصة إذ ما تعلق الأمر بالأدب اللاجئ الذي حاك الأزمة الاحتلالية من وجهة نظر عقائدية وقومية ووطنية. ما دفعنا إلى طرح الإشكال التالي: كيف تجلت تمظهرات الأنا والآخر في الخطاب السردى اللاجئ؟

سعياً منا للإجابة على هذا التساؤل، استعنا بالأديب "غسان كنفاني" الذي راح يطرز آلامه على وشاح روايتين داميتين، ناقلاً مرارة التهجير القسري الجائر في حق الفلسطينيين من خلال روايتي: "أم سعد" و"عائد إلى حيفا" اللتان حايتنا الخلفية الصورية الفلسطينية والإسرائيلية من خلال تمظهر الأنا والآخر على مستوى خطابهما السردى، بسبب تبنيهما للنص الحضاري الذي يقابل بين التاريخ الكنعاني من جهة واليهودي من جهة أخرى، على غرار التزامهما بالقضية التحريرية التي ارتسمت معالمها كاشفة عن الهوية الفلسطينية.

2. مفهوم الأنا والآخر:

1. عند العرب: تعدد مصطلح الأنا في المعاجم اللغوية العربية، فعرفه "ابن منظور" على أنه:

«اسم مكنى وهو للمتكلم وحده، وإنما يبني على الفتح فرقا بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل، أما الألف الأخيرة إنما هي لبيان الحركة في الوقف»¹. كما ورد في معجم "الوسيط" بمعنى: "ضمير رفع منفصل (للمتكلم والمتكلمة)"²، مجهز للتعبير عن الذات و متحيز لكل ما يمثلها. بينما الآخر «بالفتح: هو اسم على وزن "أفعل" والأنثى أخرى، إلا أن فيه معنى الصفة لأن أفعل من كذا لا يكون إلا في الصفة والآخر بكسر الخاء "آخر" يقابل الأول وهو صفة والآخر بفتح الخاء اسم خاص للمغاير الشخص من جنسه»³. فالأنا رافض لكل مختلف عنه عرقاً ولونا ولغة وديناً.

إذن «كل شخص هو آخر بالنسبة لأي شخص على وجه الأرض»⁴ كونه يتمتع بصفات مميزة يتباين بها عن أقرانه، ونفس السياق يسقط على الجماعات والعشائر البشرية التي اتخذت من نتاجها الإنساني سبيلا للتعريف بذاتها في مقابل الغير، ما جعل العرب يتخذون من «الاستغراب وجها للآخر والمقابل بل والنقيض من الاستشراق فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، يهدف علم الاستغراب إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، وإذا كان الاستشراق هو دراسة الحضارة التي يدرسونها فإن الاستغراب هو العلم المضاد له (...) في الاستغراب انقلبت الموازين وتبدلت الأدوار، فأصبح الأنا الأوروبي الدارس بالأمس، هو الموضوع المدروس اليوم كما أصبح الآخر الأوروبي المدروس بأمس هو الأنا الدارس اليوم»⁵.

فجوهر الفرد يتجلى في شخصيته الأدبية المنوطة بأحداثه الحياتية المستمدة من خلفياته التاريخية ومن حضره⁶ لأننا «إذا اخترنا دائرة الأنا فإننا نجد في الاستخدام الشائع ترمز إلى ذلك الغربي الأوروبي أو النصراني اليهودي وعليه لتتعرف بعدم إمكانية تجاوز مثل هذا التداخل ودلالة المصطلحات الثلاثة على شيء واحد في كثير من الأحيان، ونحن نتعامل مع كتابنا (العرب) تحديدا أو الذات العربية، أما (الآخر) مع دلالاته الشاملة على كل ما هو غيرنا نحن الشرقيين أو المسلمين أو العرب فإننا لا نعني به (الغرب) تحديدا، وذلك لخصوصية علاقاتنا به، فنحن لا نستطيع في معرض الحديث عن الذات العربية أن نتجاهل هذا الآخر الغرب سواء بوجهة الإيجابي أو السلبي»⁷. ذلك أن الأنا والآخر وجهان متعاكسان يكمل أحدهما الآخر من خلال المقومات الثقافية والمخلفات التاريخية والوعي الجمعي، وقد تماهى العرب حديثا في الغرب، منسلخين عن هويتهم الأصلية في سبيل متابعة التطور المزعوم، متناسين مجدهم التليد.

2.2. عند الغرب: كان "أرسطو" أول من استخدم مصطلح الآخر فأطلقه على كل فرد غير يوناني معتبرا «الآلهة قد خلقت اليونانيين من مادة نورانية خاصة فهو كامل متكامل، على خلاف غير اليوناني الذي يعاني من القصور العقلي والعضلي، باعتباره خلق من مادة خسيصة»⁸ وبهدف تمييز اليوناني المتحضر عما سواه من المتخلفين اتخذ أرسطو من اللغة بوصفها أهم عنصر لتحديد الهوية سبيلا لإلحاق الدونية بالآخر، «فأطلق لقب "بربري" على كل من لا يكتب اللغة اليونانية ولا يتكلم بها، ويمكن استبعاده إذا وقع أسيرا، وبهذا تم تحديد هوية "الأنا" وربطها بالعنصر اليوناني و"الآخر" من هو خارج الدائرة اليونانية»⁹، متعاليا عن الأجناس البشرية الأخرى في نظرية متعالية وعنصرية تيرر جنون العظمة الذي أصاب اليونان قديما حتى صاروا واهمين بأصولهم الإلهية النورانية وهو زعم باطل ما له من قرار.

فها هو "بول ريكور" يقول أن: «الكلام عن الذات ليس الكلام عن الأنا»¹⁰ لأنها تتجاوز الكينونة الفردية إلى الرؤية الجمعية مقابل النظرة الغيرية، "فكل فرد وكل جماعة على مستوى الآداب يختصر النظرة إلى أدب بلد آخر، حيث لا يبقى إلا مجرد خطوط كبرى لمأحة (...) وكلما اتسعت الجماعة ازداد إمكان اختصار الخطوط المكونة من البلد الآخر وصارت النظرة كاريكاتورية لافتة»¹¹ تنأى عن حجب المحلية والانغلاق الذاتي، منفتحة بذلك على مختلف الثقافات والأمم.

ومن هنا تولد «الصراع القائم بين سلطة العالمين الخارجي والداخلي في وقت احتدم الصراع بين القوى الشخصية الثلاث ودوافعها الغريزية بين الظروف التي تستثيرها في العالم الخارجي فظهرت الأنا تلبية لحاجة النفس البشرية للتوازن النفسي والاجتماعي الذي يستدعيه مبدأ الواقع والعقل»¹²، فأصبحت «السرديات المتخيلة تحيل إلى أنساق ثقافية متشعبة بمنظومة من القيم الروحية والأعراف والتقاليد والمؤسسات وأساليب التفكير السائدة داخل مجتمع ما»¹³ مشكلة ما يعرف بـ«الوعي الجمعي» الخاضع

للهوية الواحدة القائمة على الثقافة الشخصية القبلية والعرفية والحضارية التي تتقاطع مع علاقتها بالآخر شخصا كان أو جنسا أو حضارة¹⁴.

وهو ما تسبب في خلق كل الثنائيات التالية: الأنا والآخر، الغرب والشرق، السيد والعبد، الرفعة والدونية، المركز والهامش.. إلخ وغيرها من المصطلحات التي أشعلت صراعا حضاريا بين الشعوب ورسمت صورا نمطية تخوفية عن الغير في سبيل ترجيح كفتها في ميزان السيادة العالمية، وكانت الغلبة للدول المسيطرة الحاملة لشعار الإمبريالية والتي دحض مقولاتها "إدوارد سعيد" من خلال تنفيذ ظاهرة «الرد بالكتابة» على كل الأيديولوجيات المغرصة المناوئة للإنسانية وللآخر¹⁵.

3. مفهوم الأدب اللاجئ:

عمدت الدراسات النقدية المعاصرة على الاهتمام بالبنى الأيديولوجية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي من شأنها التعبير عن قضية جمعية كذلك الكتابات التي خاض فيها المبدعون اللاجئون في شتى أصقاع الأرض، معبرين عن شنائهم وآلامهم وحروبهم وأحلامهم المهربة في حقائق صغيرة مهملة على عجل مؤسسين لجنس أدبي يختزل معانئهم ويحمل هواجسهم وأمانئهم رغم أن الإنسان يجب أن يكون متكيفا مع كل ما يحيط به، متقبلا للصعاب التي وقعت على كاهله، متعايشا مع كل الأقوام والأوطان «فيرى وطنه أثيرا على نفسه هو إنسان غفل طري العود، أما الإنسان الذي ينظر إلى أي تربة وكأنها تربة وطنه فهو إنسان قوي، أما الإنسان الكامل فهو ذلك الإنسان الذي يرى العالم بأسره غريبا عليه»¹⁶.

من هنا انبثق أدب اللجوء كسلوك جماعي للكُتّاب المهاجرين، فجاء نابعا من مرارة تجربة الهروب من واقع الحرب والاعتقال والنفي والتهجير في محاولة للتصالح مع الواقع الجديد المفروض قسرا من لدن الأوضاع المتوترة في البلد الأصلي، متخذا موقعا بين الأدب النسوي وأدب السجون وأدب المهجر وغيرهم من الآداب التي لم تنزل لم تتخذ لها موقعا بين الأجناس الأدبية، وقد راج كثيرا بعد النكبة العربية الفلسطينية سبعينيات القرن الماضي وشاع بعد الثورات العربية وما أعقبها من اضطرابات سياسية وحملات تهجير قمعي.

4. تمثلات الأنا والآخر في روايتي: "أم سعد" و"عائد إلى حيفا":

4.1. تمثلات الآخر: تكافتت متون الروائيتين لتسرد خطابا مشحونا بالكراهية والقبول اتجاه الآخر المستعمر، فطبعتا بالتوتر من وضعية اللجوء الغاشم وعجت صفحاتهما بالصراعات المتوارثة حول أحقية امتلاك الأرض، محاكيتان الواقع وساعيتان إلى تأسيس مضمون عقلي وانفعالي لمظاهر متباينة بين الاحتواء والنفور¹⁷، فيرويان حكاية الآخر وفق رؤية الأنا الناظرة ليصبح نظاما سوريا متناسقا ومناسبا لتاريخ جماعي واجتماعي وأخلاقي للثقافة المنتجة أو الموجه إليها.

- رؤية القبول: التعايش مع الآخر وقبوله يعني «الحياد مع الاستجابة المشروطة»¹⁸ من خلال فهمه ومحاورته والتكيف مع أساليبه دون نظرة قبلية وأحكام مسبقة، فتمنح الآخر مساحة بيضاء ترتسم عليها صورته بكل موضوعية يسودها التسامح لذلك لن تنحرف أو تبالغ في تعاملها مع الذات أو الآخر باعتبارها ندا، بل تقيم الصورة عبر رؤية واعية¹⁹ تحكمها التجربة والمصادقية.

وهذا ما نلمحه في صفات بعض اليهود المتسامحين الذين «يعترفون بحق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته، وينادون بالسلام والتعايش السلمي، لا يهمهم حجم إسرائيل ولو كان صغيرا. إن كل ما يريدونه حدود آمنة ومعترف بها»²⁰، فما هي "ميريام" يهودية الديانة، إيطالية الأصل تعطف على رضيع صغير عثرت عليه بين أكوام الجثث ورفات الركاب حين نزلت مهجرة إلى مدينة "حيفا"، تهرع

إليه في خوف وجزع، تحمله بين ذراعيها، تنفض عنه الغبار وهي تعلم أنه طفل عربي بعد أن رأت فيه صورة شقيقها الصغير الذي قتله النازيون الألمان بلا شفقة أو رحمة²¹.

كانت "ميريام" رحيمة وأماً حنونة على "خلدون" الذي أسمته "دوف" ومنحته حق اختيار البقاء رفقها أو العودة إلى أبيه، تقول: «أريد أن أقول لك شيئاً مهماً، ولذلك أردت أن تنتظر "دوف" أو "خلدون" إن شئت كي تتحدثا. وكي ينتهي الأمر كما تريد له الطبيعة أن ينته. أنا أعرف أباه وأعرف أنه ابننا، ومع ذلك لندعه يختار، لقد أصبح شاباً راشداً وعلينا نحن الاثنين أن نعترف بأنه وحده صاحب الحق في أن يختار»²² فهي لا تمنع رجوعه إلى أهله بعد أن غذته بالقيم الهوياتية اليهودية، إذ تعلم مسبقاً أن الأم المربية وليست المنجبة، وأن أفكارها مندسة في وعيه ولا وعيه، إنه يهودي أكثر منه فلسطيني مسلم، يحمل جينات معلميه والبيئة التي ترعرع فيها.

- رؤية الرفض: الصهاينة «لا يقصون الآخر الفلسطيني فحسب، وإنما يسعون إلى تدميره واجتثاثه، يكونون كراهية للعرب، ويحرصون على تهجيرهم، وترحيله من الأراضي المحتلة (...) ويتوخون وطناً كبيراً يتسع لأحلامهم الاستعمارية وجشعهم الاستيطاني، ويكدون من أجل محو دولة فلسطين من الخريطة واقتلاع جذورها»²³، فهم يدعون أنهم أفضل الخلق وأقربهم لله وبقية العباد من البشر مجرد خدم لهم، أو كما وصفوهم بالغوينم وهم أقل مكانة من الحيوان، هذا ما لمسناه في رواية "عائد إلى حيفا".

فها هم "الهاغاناه" الجيش الإسرائيلي الذي لا يرحم شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة يسجون حدود مدينة "حيفا" الفلسطينية بدبابتهم ونبالهم ومدافعهم بعد أن جردوها من سكانها وطردهم منها شر طرد، تعتزم إعادة إعمارها بمشردى أوروبا من اليهود. متهمين على الفلسطينيين الذين لا حول لهم ولا قوة، متباهين بجبروتهم وشدة بطشهم، يقول: «إنهم يقولون لنا: تفضلوا أنظروا كيف أننا أحسن منكم وأكثر رقياً. عليكم أن تقبلوا أن تكونوا خدماً لنا معجبين بنا»²⁴.

تعمل أنانية الصهاينة وتكبرهم وطمعهم إلى محاولة نفي الوجود الفلسطيني وتجريده من حقوقه في مخطط سعيهم إلى تهجيرهم نحو البلاد العربية (السعودية خاصة)، وهو ما أفاد به الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" مؤخراً في دعوة إلى طرد الغزايين إلى مصر والعراق والشام والأردن بحجة امتلاكه للأراضي المحتلة وضمان عدم رجوع المقاومة إليها²⁵.

2.4. تمثلات الأنا:

الصورة «لغة ثانية موازية للغة التي يتكلم بها الأنا (...) وهي اقتباس من الحقل المعجمي للبصريات: إدراك، نظر، قراءات، رؤيا، وهم»²⁶، وهي كذلك ترجمة مزدوجة للذات، ومن هنا يأتي الاهتمام بالصورة الأدبية كفاعل ثقافي يرسم أبعاد العلاقات الإنسانية بين الشعوب والدول من خلال لغة رمزية تعكس رؤية الناظر بعينها فتتحقق مقاربة نسبية للمنظور إليه، جاعلة من الأنا هيئة قاعدية تطوف حول فضائها جملة من الصور التجريدية التي تبادلت معها الطابع الثقافي، كفاعل «يدرس كمادة وممارسة أنثروبولوجية لها مكانتها ووظيفتها من العالم الرمزي المسمى خيالاً، والذي لا ينفصل عن أي مؤسسة ثقافية أو اجتماعية يرى نفسه من خلالها أو بواسطتها»²⁷، فالآخر ليس إلا انعكاساً للأنا نداً أو تماهياً أو تعايشاً، إذ لا يمكن فصل الثنائيتين عن بعضهما البعض خاصة في النص الروائي.

- **الأنا الراض للآخر:** حين «يطغى إحساس "الأنا" بظلم الآخر وهيمنته، تبادر إلى الدفاع عن نفسها خشية الذوبان، فتقوي انتماءها إلى الجماعة وتتماهى بها من أجل الحصول على الاعتراف ومواجهة الإقصاء، أو المسخ الذي هو الموت لذلك تبحث عن الهوية التي تتميز بها عن الآخر المختلف وتجمعها بمن يتألف معها كي يزداد إحساسها بكيونتها»²⁸، ها هي "أم سعد" تحمل بوجع آلام قومها وتعيش نكبتهم والضيم الذي ألحق بهم كونها جزء من الطبقة المضطهدة التي ترتسم أمامها في ملجئها الكئيب بعد أن رحلت عنوة من بيتها الذي تحول تحت القصف الصهيوني إلى أكوام من الحجارة والطوب. وهي الحقيقة نفسها التي عايشها "كفاني"، فصارت بالنسبة له مدرسة وطنية علمته الالتزام بالقضية التحررية رغم البؤس والفقر، شجعتة لأن يكون باسلا حتى لو انتمى للطبقات المسحوقة، محافظا على قوميته العربية وأصله الفلسطيني، مناديا بحق تقرير المصير سياسيا وعسكريا. فزراها تودع ابنها بفخر لينضم إلى صفوف الفدائيين، لأن الثورة سبيلها الوحيد لاسترداد الحرية والعيش بكرامة على أرض الكنعانيين. يقول: «فأم سعد ليست امرأة واحدة، لولا أنها ظلت جسدا وعقلا وكدحا في قلب الجماهير، وفي محور همومها وجزء لا ينسلخ عن يومياتها. لما كان بوسعها أن تكون ماهي، ولذلك فقد كان صوتها بالنسبة لي هو صوت تلك الطبقة الفلسطينية التي دفعت غالبا ثمن الهزيمة»²⁹، جسد "أم سعد" دور الأم والوطن والثائر والهوية، رافضة التعايش الاستغلالي اليهودي، مرافعة ضد الظلم والاستعمار الغاشم، صارخة بالحرية.

- الأنا المعجب بالآخر:

تستطيع التجارب المعاشية اليومية أن تعزز التواصل الإنساني بين الأنا والآخر، معززة مشاعر التألف والاعتراف به³⁰، لكن الأمر يختلف حين تتعالق المصالح لتشكيل صورة ممسوخة عن الأنا، منكرة لهويتها الخاصة، متنازلة عن حقوقها الإنسانية، غير ملتزمة بقضايا وطنها، خائنة عهود البلاد والعباد، هذا ما لمسناه في شخصية "المختار" المنقاد لأوامر السلطات الاستعمارية في خوف، المتآمر مع الأعداء ضد بني جلدته من الثوار المقاومين للاستيطان الغاشم، وحاول بثتى الطرق الترغيبية والترهيبية إقناعهم بضرورة التوقف عن العمليات المسلحة المناوئة للمد الاستعماري.

يقول: «ذهب (المختار) وأراد أن يأخذ من كل واحد منهم توقيعاً على ورقة يتعهدون فيها أن يكونوا أوادم³¹، ولكنهم رفضوا وطردوه»³²، نفى المختار الموالي للسلطات الاستعمارية "الأممية" عن الثوار الفلسطينيين، واصفا مقارعتهم لخصومهم بالفعل الهجمي، معتبرا رفضهم للآخر المستعمر بالفعل المعادي للإنسانية، فطرد من لجة المنتقمين وسخط عليه المقاومون وتبرؤوا من خنوعه ومذلتة.

على غرار "عبد المولى" «الرجل الذي يشتغل مع الإسرائيليين، وقد صار عندهم نائبا في البرلمان»³³ بعد أن باع أرواح إخوانه الحائنين على ضيم الاحتلال الإسرائيلي الملحق بالأبرياء منهم، لقد خان ضميره وهويته وبني جلدته وتحول إلى دمية دامية تفتك بالمستضعفين... «يا حيف عليك يا حيف... يا حيف! ³⁴ وحسرتاه على الحليب الأبى الذي رضعته من ثدي الحرائر، وحسرتاه على الزيتون الشجي الذي اشتدت به سواعدك، يا ويلك من الرقاب التي نحرت، والأسماء التي بلا يقين كتبت، واليتامى والتكالي والكفوف الممدودة كل فجر للدعاء عليك!».

- الأنا المستلب (المتماهي في الآخر):

يعاني المستلب من عذاب الوحدة والعجز وعدم القدرة على التعامل مع غيره³⁵، فهو يسعى لكسر كل ما يربطه بماضيه وبأصوله العربية - كما لمسناه في شخصية دوف (خلدون) - قاطعا جميع الأواصل

التي تعيده إلى حجر أمه البيولوجية، وطنا كانت أو والدته، ويختلق الأعداء للانحباس في فوهة مربيه أو منقذيه -على حد تعبيره- بل ويضمّر حقدا دفيناً لوالديه الفلسطينيين اللذان تركاه رضيعاً لم يتجاوز الخمسة أشهر وسط الركام والدمار الذي حل ببيتهم في حيفا بعد القصف العرمرم.

فراه يوجهه وابلًا من اللوم والاحتقار حين يكلم والده البيولوجي، يقول: «عاجزون! عاجزون! مقيدون بتلك السلاسل الثقيلة من التخلف والشلل لا تقل لي أنكم أمضيتُم عشرون سنة تكون الدموع التي لا تسترد المفقودين ولا الضائعين ولا تجترح المعجزات، أهذا ما تقوله لي الآن؟ أهذا هو سلاحك التافه المغلول؟»³⁶. فيواجه أباه بمقالع من حديد ويوشك على الفتك به بعد أن صار مجنّداً في قوات الاحتلال ساعياً إلى الانتقام منهم، في محاولة للتخلص من جلده الأسمر ومن انتمائه العربي بشتى السبل حتى لو اقتضى الأمر أن يرتكب مجازر في حق أهله، لا لشيء إلا لأن يشعر بانتمائه للاحتلال الإسرائيلي ويجتث كيانه من الانتماء الفلسطيني، يقول: «إنني في قوات الاحتياط الآن، لم يُقدر لي خوض معركة مباشرة إلى الآن لأصف لك شعوري، ولكن ربما في المستقبل أستطيع أن أؤكد لك مجدداً ما سأقوله الآن: أنني أنتمي إلى هنا، وهذه السيدة هي أمي، وأنتم لا أعرفكم ولا أشعر إزاءكم بأي شعور خاص»³⁷.

إذن، فشتان بين الخائن المتواطئ مع المستعمر تلبية لمصالح شخصية دون أن يتجاهل أصوله العربية، وبين المستلب المتماهي في تقليد الآخر كي يصبح نسخة طبق الأصل عنه، متخلصاً من كل ما يربطه بهويته لأنه يرى نفسه إسرائيلياً لا فلسطينياً، محاولاً إثبات ذلك بشتى السبل الممكنة، المشروعة منها والممنوعة.

5. خاتمة:

حاول "غسان كنفاني" إبراز خلفيات الصراع في الأراضي الفلسطينية مستعينا بالتجارب المعاشة والواقع المرير، فنقل صور اللجوء بأصدق معالمها وكأنها وثيقة تاريخية تشهد على التهجير المفروض وعلى المقاومة المسلحة المناوئة لقوات الاحتلال، وهو ما لمسناه في رواية "أم سعد" التي كانت بمثابة سيرة ذاتية لمدرسة الفدائيين.

سعى "كنفاني" إلى تمجيد الهوية الفلسطينية بمثابة الأنا الجمعي في مقابل تقزيم هوية الآخر الذي غالباً ما أتبعه بالأوصاف التي تنقص من شأنه (شرذمة، القلة، المهجرون، الفارون، القادمون، أقليات أوروبا)، ولا شك أن ذلك نابع عن عدائه الدفين للمحتل، فتعبير الألفاظ الكارهة للآخر لا وعيه وتنتشر على أوراقه دون أن يقمعها أو يخفيها لأنه يحيا مرارة الخوف.

غالباً ما صور الآخر تصويراً نمطياً وهو ما لمسناه في شخوص رواية "عائد إلى حيفا"، أو يغيب حضوره المادي متعمداً تهميشه ووأد وجوده بين دفتي خطابه السردية، إذ تلاش الآخر من رواية "أم سعد" واحتل محله اللسان الخائن الناطق باسم المحتل.

شق "كنفاني" دروب الحوار الثقافي والحضاري في روايته "عائد إلى حيفا"، فكانت الحرب القاسم المشترك لآلام الشعوب وتشتتها في البقاع والأصقاع، وهو ما لمسناه في آلام "ميريام" التي تراءت في أحداق "خلدون" الرضيع المكور بين الأنقاض.

حاول "كنفاني" أن يشرح حالة الاغتراب الروحي والوجودي للاجئين الفلسطينيين، ناقلاً إحساسهم، راسماً شتاتهم متوغلاً في مفاهيم القهري، مستغلاً التجربة اليهودية التي عانوا خلالها الطرد والنبذ في

أوروبا، مذكرا إياهم بماضيتهم المثقل بالتشرد والفرار، عاكسا دونيتهم في مقابلة الخير بالشر، ممارسا لعبة الإنداء من شأن الآخر بذكاء عازفا على الوتر التاريخي الذي يحسم جدل ملكية الأرض الفلسطينية. أثر اللجوء المفروض على نفسية "كنفاني" إذ لم يستطع أن يلجم ما خبرته عيناه عن أوراقه الإبداعية، فكان ذاتيا في طرحه للقضية الفلسطينية، فتستشعر ما مر به من خلال روايته، إذ يتكرر الأسلوب والتخييل والوجع، فلا تكاد نميز بين أعماله لأنه يرتدي دور الراوي والشاهد معا، ولكم تمنينا أن نقرأ له نصا تاريخيا يتهدى إلينا.

تجسدت تمثلات الأنا والآخر في الخطاب "الكنفاني" من خلال ما يلي:

- الآخر عنده هو اليهودي، أي كل من يدين باليهودية أوربيا كان أو عربيا.
- يحضر التعميم والتميط في سروده الراضة للآخر، إلا في شخصية "ميريام" في رواية "عائد إلى حيفا".
- رسم صورة الآخر يحتاج رسدا وتكيفا وصبرا وتحملا للمشاق الجسدية والروحية ومواكبة لتواتر الأجيال عبر الأزمنة.
- النظرة الكنفانية للآخر ذاتية نابعة عن قوميته وعن اعتزازه بعروبته وعن رفضه للمستعمر الغاشم.
- احتلت المرأة صفحات عديدة من روايته بصفتها فردا محوريا في المجتمعين اليهودي والفلسطيني وعبرت عن المحاسن الأمومية عند كلا الشعبين.
- تقديم رؤيتين متباينتين عن شريحتين مختلفتين من المجتمع الفلسطيني، فهناك الملتمزم بقضيته الوطنية التحررية وهناك الخائن لأتمته وهناك المستلب التابع للآخر.
- أبرز موقفين مختلفين للآخر، فهناك الاحتلال الساعي إلى طرد الفلسطينيين من أراضيهم، بينما هناك قلة ممن يسعون إلى نشر السلام بين البلدين ويطالبون بالعيش جنبا إلى جنب دون مغالاة في الكراهية.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، تح: مجمع اللغة العربية، ج2، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 4، 2005.
- أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، مصر، ط 1، 1997.
- أرسطو، السياسة، تر: أحمد لطفي السيد، القاهرة، مصر، د.ط، 1960.
- أريج بنت محمد بن سلمان السويلم، السرد الرحلي والمتخيل لدى السيرافي والغرناطي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2017.
- البازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 5، 2007.
- المهندس كامل وهبة مجدي، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط2، 1984.
- الوافي ناصر عبد الرزاق، الرحلة في الأدب العربي، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط 1، ج1، 1995.
- أنجل بطرس، الرحلة في الأدب الإنجليزي، مجلة الهلال، القاهرة، مصر، ع 7، يوليو 1985.
- بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005.
- رحلة السيرافي، أبو زيد الحسن السيرافي، تح: عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي لأبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، د.ط، 1999.
- سعيد إدوارد، صور المثقف، تر: غسان غص، دار البنان، بيروت، لبنان، ط 3، 1999.
- سعيد إدوارد، تأملات حول المنفى، تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2004.
- صالح صلاح، سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2003.

- عبد النور جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.
- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، مج1، 1972.
- غويار ماريوس، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، دار عويدات، لبنان، ط2، 1988.
- فوريد سيغمون، الأنا والهوى، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1982.
- فواز الشعار، الموسوعة الثقافية العامة، إشراف: إيميل يعقوب، دار الجبل، بيروت، لبنان، ط1، 1999.
- فيصل عباس، الاغتراب (الإنسان المعاصر وشقاء الوعي)، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- كاظم نجم عبد الله، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار فارس، بيروت، لبنان، ط1، 2013.
- ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 2000.
- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، دط، 2013.
- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- محمد الداوي، صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2013.
- مندور محمد، في النقد والأدب، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، دط، 1978.
- هنتفتون صمويل، صدام الحضارات، تر: طلعت الشايب، ط2، 1999.
- bbc news بالعربي، 2025/02/10. رابط:

<https://www.bbc.com/arabic/articles/cjexj74pe83o>

الهوامش:

- 1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط4، 2005، المادة أنى، ص182.
- 2- معجم الوسيط، الإدارة العامة للممات وإحياء التراث، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط4، 2005، ص28.
- 3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1990، مج01، ص38.
- 4- صلاح صالح، سرد الآخر، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2003، ص120.
- 5- أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، مصر، ط1، 1997، ص150.
- 6- ينظر، محمد مندور، في النقد والأدب، دار النهضة للطباعة والنشر، مصر، 1978، ص70.
- 7- نجم عبد الله كاظم، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار فارس، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص39.
- 8- ينظر، أرسطو، السياسة، تر: أحمد لطفي السيد، القاهرة، 1960، ص255.
- 9- سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط5، 2007، ص21.
- 10- بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص361.
- 11- ماريوس غويار، الأدب المقارن، تر: هنري زغيب، دار عويدات، لبنان، ط2، 1988، ص28.
- 12- سيغمون فوريد، الأنا والهوى، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1982، ص16.
- 13- صمويل هنتفتون، صدام الحضارات: إعادة صنع العالم، تر: طلعت الشايب، ط2، 1999، ص69.
- 14- ينظر: صمويل هنتفتون، صدام الحضارات، ط2، (م.ن)، ص209.
- 15- ينظر: إدوارد سعيد، صور المثقف، تر: غسان غص، دار البنان، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص71.
- 16- إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى تر: ثائر ديب، دار الآداب، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2004، ص19.
- 17- ينظر، ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق، سوريا، دط، 2000. ص115.
- 18- نجم عبد الله كاظم، نحن وآخر في الرواية العربية المعاصرة، (م.ن)، ص52.
- 19- ينظر: ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص28.
- 20- محمد الداوي، صورة الأنا والآخر في السرد، رؤية للنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2013، ص151.
- 21- ينظر: غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، مج01، 1972، ص378.
- 22- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص384.

- 23- محمد الداوي، صورة الأنا والآخر في السرد، (م.ن)، ط1، ص 150.
- 24- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، ط1، مج1، ص 344.
- 25- ينظر: bbc news بالعربي، 2025/02/10. رابط:
- 26- دانييل هانري باجو، الأدب المقارن العام، تر: غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق، سوريا، دبط، 2003، ص 92.
- 27- ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، (م.ن)، دط. ص 114.
- 28- ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر (نماذج روائية عربية)، عالم المعرفة، الكويت، دط، 2013. ص 21
- 29- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 242
- 30- ينظر: غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 29
- 31- أودم: مصطلح عامي يعني الاتصاف بالأخلاق الإنسانية السامية، ويطلق على المتأدبين وأصحاب السلوك المتزن.
- 32- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 253.
- 33- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 304.
- 34- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 309.
- 35- ينظر: فيصل عباس، الاغتراب (الإنسان المعاصر وشقاء الوعي)، دار المنهل اللبناني، بيروت، لبنان، ط01، 2008. ص 8.
- 36- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 409.
- 37- غسان كنفاني، الآثار الكاملة (الروايات)، (م.س)، ط1، مج1، ص 402.